انواع الشعر

لاتختلف انواع الشعر عند البحتري عما هي عليه عند سواه فهي مديح ورثاء وهجاء وقليل من المناسبات كالفخر وسواه واعتاد الادباء ان يبوبوا دواوين الشعر على هذه الابواب وقد جارى البحتري سواه فمدح ورثى وهجا ولكنها كانت اساليب جرى فيها على عمود الشعر ومنها كان ينفذ الى مايريد من المعاني غير متقيد بالموضوع ولو اتيح له ان يظهر ما كان يعن له لارانا الشعر عجبا .

اتخذ كتاب الحماسه لابي تمام فنسج على منواله واظهرها حماسة للفتح بن خاقان ولكنه نوع الشعر فيها فابدع ونظر الى هذا المديح وهذا الهجاء فاستخرج منها ابوابا جديدة بلغت (١٧٤) بابا فيها كل جديد لذيذ ومفيد دلت على ذوقه وقد جنبها كل كلمة نابية تمجها الاذواق وتدل دلالة واضحة على طبعه المشرق .

ونحن لانستطيع ان نبحث شعر البحتري بهذه الطريقة بل نتخير طريقة اخرى جرى عليها بعضهم وهي : درس الشعر بالنسبة الى تاريخه فنبحث في هذا الشعر وتاريخه كيف نشأ وترعرع وكيف تم نماؤه وهذه الاطوار التي لزمته واخرجت البحتري من ذلك الفتى المغمور الهزأة الى قمة الشاعرية والمجد ولا يخفى مافي تتبع ذلك من صعوبة .

اول امره :

نشأ فقيرا كما هو معلوم وغدا على البادية ينهل من لهجات الشعر ويحفظ الجيد مما تصل اليه يده وكانت قبلته الشعراء الذين كانت تماثل حاله حالهم .

لاتغرنك صولة الدهر ان الدهر م ان كان مذنبا سيتوب
وتعجب من غير ما انا فيه فكذا كان مسلم وحبيب

هو يخص مسلم بن الوليد وابا تمام للقافية اولا ثم انه كان يتخذ ابا تمام مثلا للكمال وهو يرغب ان يراه ويهتدي بهديه الم يكن حبيب فقيراً ؟ الم يكن جاهدا يضرب في الافاق ويطوي اليد ويقتحم المخاطر ؟ الم ينجح اخيرا ويصبح سيد الشعراء يحتكر جوائز الكرام ؟ ـ اليس ابو تمام طائيا فلماذا هو نفسه لايكون كابي تمام وبالطبع كمسلم قبله وابي نواس ومروان في وقت واحد كل هؤلاء الشعراء القدماء كانوا هدفه الاسمى وكان يلتهم شعرهم ويحذو حذوهم وينظم على منوالهم وسترى كيف كان يأتم بمسلم وابي تمام في وقت واحد ولا يخفى ان مسلما اول من وسع افق الاستعارة والمجاز وهو اول من نظم هذه الانواع البديعية في شعره واول من اتخذ الحياة الاباحية اوبالاحرى كان مع ابي نواس فرسي رهان اليس مسلم الذي لقب بصريع الغواني الم يقول :

ان ورد الخدود والحدق النجل م وما في الثغور من اقحوان
واعوجاج الاصداغ في ظاهر الخد م وما في الصدور من رمان
تركتني بين الغواني صريعا فلهذا ادعى صريع الغواني

هذا صريع الغواني الذي كان ينظر اليه البحتري نظرة الاعجاب والاكبار في اول امره ويتخذ رأيه في الحياة الرأي الصائب ألم يغر على الفاظه فيأخذ منها مالا يخفى:

ما وما احمر من ورد الخدود ضحى واحوسر في دعج من اعين العين
لقد حببت صفاء الود صائنة عني واقرضته من لا يجازيني

وطريقة ابي تمام التي كان يراها البحتري في هذا العهد كانت تجتمع مع طريقة صريع الغواني بالتعمل الظاهر والجهد وابراز المعاني بقوالب جذابة ومعمة احيانا ولكنها تختلف بان مسلما كان يهمه ان يكون ظاهر المعنى وان كثرت استعاراته ومحسنات لفظه فهو يرغب ان يكون معانيه والفاظه فرسي رهان خلافا لابي تمام الذي كان يرغب الى المعاني وتعقيد الالفاظ وسنرى كيف اثرت طريقة مسلم في نفس البحتري حتى تجنب ابا تمام وسار في غبار صريع الغواني فبذه حتى كاد ينسيه وحتى رأينا البحتري يعرض عن مسلم الى ابي نواس فيسأل مسلم اشعر ام ابو نواس فيقول بل ابو نواس لانه يتصرف في كل طريق ويذهب كل مذهب ان شاء جد وان شاء هزل ومسلم يلزم طريقا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه

ورأيناه مرة اخرى يقول دعبل بن علي اشعر عندي من مسلم ابن الوليد لان كلام دعبل ادخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه اشبه بمذاهبهم

يقول البحتري هذا القول بعد ان نيف على الخمسين واستقام له عمود الشعر اما في هذا العصر فلم يكن قد وطئت له سبل النقد

والتمييز فكان يرى في مسلم وفي ابي تمام مثال الشاعرية.

ثم هنالك مظهر آخر وهو ان في شعر مسلم اثر الفحولة والشدة وكان يخجل بلقبه ويصيح بملء فيه

لا تدعني الشوق اني غير ممنود نهى النهي عن هوى الهيف الرعاديد

وابو تمام يرى في هذا المظهر مثال الشعر العالي وبهمه ثقافة الشعر وهي اتم ما في الطريقة الشامية ويرى الشاعرية بعيدة المنال هي في جبهة الاسد فيعجب البحتري بهذا المظهر الخلاب فلتقو ثقافته وليطلع ما يشاء على شعر الاقدمين ويغرف منهم ويحذو حذوهم ويكثر من ذكر الاعلام ويبعد في هذه الاشارات ويكثر من هذه المحسنات

نكتفي الان بذكر قصيدة واحدة في هذا العهد يقولها في يوسف ابن محمد وقد عاد من غزو الروم ظافرا أليس فيها ما يساعده للطبع على غرار ابي تمام في قصيدة المعتصم بفتح عمورية ولكن لا يجرؤ ان يتخذ البحر والقافية لئلا يبدر منه ما يظهر فيه اثر النقل والاخذ وقد وقف هيابا امام هذه القصيدة التي رفعت شعر ابي تمام عاليا والتي كان يرى فيها البحتري وامثال البحتري صعوبة المنال وفي هذه الطريقة تجتمع طريقة مسلم بطريقة ابي تمام كما كان يراها البحتري وهذه هي القصيدة:

اتراك تسمع للحمام الهتف شجوا يفيء بشجوك المستطرف
لله حلم يوم برقة نهمد يهفو به بين الغزال الاهيف
أنس تجمع ثم بدد شمله شمل من الالاف غير مؤلف

في هذا المطلع تجتمع الطريقتان ولكنهم مبتسرتان اي غير ناضجتين فلم يقو على ان يبدأ بالاقوال السائرة كما فعل ابو تمام ليبهر

السامعين ولكنه اغترف من طريقة مسلم وابي تمام هذا الجناس والطباق بين يهفو والاهيف وبين تجمع وبدد والاف وغير مؤلف وذكر برقة نهمد

ودونك هذا الجهد في قوله من الغزل ايضا :

فلأجرين الدمع ان لم تجره　　ولاعرفن الوجد ان لم تعرف
وانا المعنف في الصبابة والصبا　　وعليهما اذ كنت غير معنف
عجبت لتفويف القذال وانما　　تفويفه لو كان غير مفوف

فهذه المصاعب فلا جرين ان لم تجره ولا عرفن من ان لم تعرف المهازل الصبيانية وهي جناس بالسلب ضعيف ومثله المعنف وغير معنف والصبابة والصبا اما المصيبة ففي اعادته التفويف في البيت ثلاث مرات واني اعجب كيف مرت هذه القصيدة على قلم البحتري يوم دقق في شعره وازال منه الهجاء مثلا اما المديح فيها فليس باحسن من الغزل.

اقسمت بالشرف الذي شهدت به　　أدّدُ وراثةَ يوسف عن يوسف
وبهول ايعاد الهزبر فانه　　قصف العدو برعده المتقصف
ليصبحن الروم جيش مغمد　　للصح في رهجانه المتلفف

فهذا القسم والهويل وتشبيه الايعاد بقصف الرعد دلالة النظر السطحي والثقافة المبتسرة ثم يوهمنا انه مطلع على الادب العربي كابي تمام فليذكر الحادثات .

لو ان ليلى الاخيلية شاهدت　　اطرافه لم تطر آل مطرف

والضمير يعود الى الجيش وليذكر الاعلام المشهورة

عمروا القنا من مذحج او حاتم　　في طيء او عامر في خندف

ثم هذه المبالغة الساذجة

تبدو مواقع رأيه وكأنهـــا غرر السوابق في يفاع مشرف
واذا استعان بخطرة من فكره عنت فستر الغيب ليس بمسجف

ثم يذكر مواقع غزو الممدوح مما لافائدة فيه غير ذكر الاعلام تشبيها بابي تمام حين يذكر فتح المعتصم وانقره قبل عمورية فيذكر البحتري طرسوس وخرشنة وماوة والاخيرة ظاهر فيها الاخذ والتقليد

يقول ابو تمام في انقرة :

لما رأت اختها بالامس قد خربت صار الخراب لها اعدى من الجرب

ويقول البحتري :

وتركن ماوة وهي ماوى للصدي مشفوعة بصدى الرياح العصف

ويزيد البحتري بالتجنيس بين ماوة ومأوى الى ان يصـــل الى الروم فيقول :

خطبت اليك السلم ربة ملكهم لو كان يطلب نائـل من مسعف
انزلت بالانجيل ثم باهـــله ذلا اراهم عز اهل المصحـــف

وشتان بين هذا القول وقول ابي تمام :

ابقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

ويقول ابو تمام : فتح الفتوح تعالى ان يحيط به .

ويقو البحتري :

فتح سبقت به الفتوح فجاء في ميـــلاد ملك العاشر المستخلف

وهنا الضعف وهو يريد ان يقول ان الممدوح يفتح باسم الخليفة اذ يقول بعدها :

ليكافئنك عن كفايتك التي كانت امان الدين بعـــد تخوف

وظاهر ان العاشر المستخلف هو المتوكل ولم يكن البحتري قد اتصل به ومن كلامه في غير موضعه بعد هذا .

أكدت بيعته ولم تركن الى جدل السفيـــه ولا كلام المرجف

وما للبحتري في هذه المداخل وما ابعده عن دور الخلافة واضرابها

ويستفاد من هذا البيت ان القصيـدة قيلت سنة مبـايعة المتوكل ٢٣٣ فيكون عمر البحتري ٢٧ سنة .

ثم يختم القصيدة مفاخرا بان الممدوح ورث الامارة عن ابيه . قاسمته اخلاقه وهي الردى م المعتـــدي وهي الندي للمعتفي

فاذا جرى من غاية وجريت من اخرى التقى شأواكما في المنصف

وهل يقابل هذا الختام بختام ابي تمام ولماذا هذا السباق وهـذا اللقاء في المنصف هذا تشبيه بدوي لولا سلاسته لقلنا جلف .

فترى ان معاني القصيدة تنظر الى اسلوب ابي تمـــام والفاظها وبديعها يطمح الى مسلم بن الوليد والبدء ظاهر فيهـا والسذاجة لابل الضعف والهلهلة باديان في كل بيت من القصيدة وقد نقبت حتى اجد بيتا واحدا يمكن ان ينسب الى عالي شعر البحتري فعجزت .

ولو اخذنا القصيدة التي اعجب بها ابو تمام وهي القـافية التي انشدها محمد بن يوسف نفسه لما وجدت فرقا بينها وبين القصيدة التي حللناها انما يرجع اعجاب ابي تمام الى انه لم يكن ينتظر ان يفاجأ بنا شيء يقول مثل هذا . ولما مات ابو سعيد الثغري رثاه البحتري بقصيـدتين اغار على قصيدة علي بن جبلة في رثاء حميد الطوسي فسلخ كثيرا من معانيها مما يدل على انه في هذا العهد لم يكن يتحرج ان يسلك كل طريق ناشيء .

ويقول الادباء ان ابا تمام بعد ان خبر ذكاء البحتري وكانه نظر الى مستقبله وخاف منه رغب ان يتزوج امه (ام البحتري) ليكون مقام ابي تمام مقام الوالد وهي سنة اختطها مروان بن الحكم مع خالد بن يزيد بن معاوية وكانت ام البحتري من الذكاء بحيث علمته الاحترام والذوق .

اما حياة البحتري في هذا العصر فقد شرحها .

عشرون قصرها الصبا واطالها ... ولع العتاب بهائم لم يعتب
امسي زميلا للظلام واغتدي ... ردفا على كفل الصباح الاشهب
فاكون طورا مشرقا المشرق الاقصى وطورا مغربا للمغرب
واذا الزمان كساك حلة معدم ... فالبس لها حلل النوى وتغرب
ولقد ابيت مع الكواكب راكبا ... اعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كانه ... هو في حلوكته وان لم يذهب
والعين تنصل من رجاه كما انجلى ... صبغ الشباب عن القذال الاشيب

٢ في العراق =

مازال البحتري يضرب في الافاق آفاق الشعر وافاق البيد ويجوب مستوعر القوافي ومعتسفات القيافي حتى استبانت له واضحات الاساليب واطمأنت نفسه الى الاقامة في الحضر واين ذلك ؟ في بغداد في حاضرة الخلافة لم يكن في بغداد رونق شعر مسلم واضراب مسلم من اهل العراق لم تكن قبلة حبيب واضراب حبيب من شعراء الشام في العراق في بغداد وعلى دجلة فليكن

يانديمي بالسواجير من ود م بن معن وبحتر بن عتود
اطلبا ثالثا سواي فاني ... رابع العيس والدجى والبيد

ترك اخلاءه وندماه وعلوة وكل ما يتصل بالشام وبالفرات ومنبج وحلب والرقة ونصيبين حتى الموصل وجعل بغداد هداه ، وحل بغداد غريبا وجعل ينظر بعينه الناقدة الى قصور الخلافة وهي عنقاء مغرب لمن كان في مثل حاله وهؤلاء القادة من طيء الذين كانوا يتوافدون الى العراق وقد عرفه بعضهم وجهله اكثرهم فليست العراق له بموطن وهذا الاديب علي بن يحيى المنجم وقد اكتشفه وفهم ادبه وشعره ولكن منزلة علي عندما وفد البحتري لم تكن تؤهله الوصول الى دور الخلافة بل الايصال . فيقصد هؤلاء الوزراء العلماء الكتاب وليقامر بمنزلته وهو الرابح على كل حال فان رد فهو بمنزلة المبعد المجفو وان حظي يكون قد تقدم درجة من مقر الشموس ومطمح الابصار وكانت دولة الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وكان الخليفة الواثق ابو اسحاق الاديب الموسيقي لا تسمح لغريب مجهول كالبحتري من الدنو وهذا محمد بن عبد الملك النقادة النفور الطماح الذي لا يؤمن شره وهذه الحزازات بينه وبين القاضي احمد بن داود وهذه الاحزاب التي تخاطر حتى بحياتها كل هذه لم يفهمها البحتري وقد تجاهلها بتاتا أليس هو بشامي فما يعنيه من هذه الاحزاب ؟ فاذا كان من حزب فيخشى ان يكون امويا ولكنه بمأمن من هذا الشر ايضا فقدمهد هذه الصعوبة ابو تمام قبله وعلم العباسيون ان امر السفياني قد انقضى فليتقدم الى الزيات ولا يحتاج الى من يقدمه اليه فله نوبة جاءه فيها فانشده قصيدة افرغ فيها كل شاعريته وجهد على غير عادته بالجهد ولا غرو فعليها يتوقف مستقبله في هذه الحاضرة وفي غمرة هذا الشعر والشاعرية انشده قصيدة كان لها اوقع اثر في النفوس وخرج من دار الوزارة

وقد اصبح في اوج شاعرية العراق ولا حاجة الاطالة فهي امامنا وهي خير نموذج للشعر البحتري وهو بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره وقد بلغ البحتري اشده او كاد يبلغ شعره المقـــام الذي تهيأ له ومطلعها :

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمود

هذا مطلع طبيعي في البحتري اي وفاء يعني وهو امام مجتمـــع الاحزاب التي لاتعرف الوفاء ولـكن وفاء البحتري مشهور ثم عقب على هذا الوفاء بقوله:

ما بكينا على زرود ولكنا م بكينا ايامنـــا بزرود

فالوفاء لايام الشام ايام صباه فليأمن الوزير وليأمن حزب الوزير ثم ينتقل من فن الى آخر في هذا الغزل الرقيق البحتري وان كان فيه بعض النفور بالنسبة الى ما سنعلم من شعره تلك سنة النشوء وتلك انظمة الحياة :

يالخضر ينحن في القضب الخضر م على كل صـــاحب مفقود
عاطـــلات بـل حاليـــات م يرددن الشجى في قلائد وعقود
زدنني صبوة وذكرنني عهـداً م قديمـــا من ناقض للعهـود

فالنفور في كلمة مفقود في البيت الاول والتعمل وصف الشجى بالدرر المنظومة في قلائد وعقود وانفر مايكون استعمال كلمة ناقض للعهود وهي مايستعمل في السياسة وعقود الخلافة ثم يسير على طريقة ابي تمام يتحداه بطريقة بحترية .

لست بالواهن المقيم ولا　　القائل يوما ان الغنى بالجدود

من يعني هذا يعني كل واهن يلوم الحظوظ وهو رأي سيتضح في مستقبل البحتري ثم يتخلص من الغزل الى المديح على الطريقة القديمة عمود الشعر .

واذا استصعبت مقادة امر　　سهلتها ايدي المهارى القود
حاملات وفد الثناء الى ابلج م　　صب الى ثناء الوفود

ويحسن بنا هنا ان نذكر قول ابي تمام .

قد قلت وهي تنال من عرض الفلا　　بملاطس في الوخد غير اوال
احوامل الاثقال انك في غد　　بفناء احمد منك للاثقال

قابل بين ملاطس التامية وايدي البحترية وبين حوامل الاثقال وحاملات وفد الثناء الى الصب الى ثناء الوفود

قد استوى البحتري على عرشه وترك ابا تمام وغير ابي تمام قد بلغ اشده فليختط لنفسه الطريق السوي ولكنه لم يفهم السياسة بعد ولم يدخل دور الخلافة فلا يدري مايجب ان يقال للوزراء وليس في اللغة طريقة مدرسية (كلاسيكية) وكل هذا المعروف في الادب الغريب معدوم في ادب العرب وموكول الى ذوق هذا الاعرابي الشاعر سمع وهو في منبج وجوارها ان الخلافة في بغداد عرضة للخيانة والوزراء عرضة للمصادرة والازدراء والقتل فاول مايوصف به الوزير المدبر هو عدم الخيانة كان الخيانة من لوازم الوزارة

لم يخن ربها ولم يعمل الند　　بير في حلّ تاجها المعقود

obeikandl.com

اي وزير هذا الذي يعمل التدبير في هدم الخلافة . ولكن الوليد الحاذق رجع بذهنه الى جميع وزراء العباسيين من ابي سلمة الخلال الى يعقوب بن داود الى جعفر وكل ال برمك الى الافشين وان لم يكن وزيرا كل هؤلاء كانوا وزراء ووصموا بالخيانة الم يقل الشاعر المجهول في بدء عصر الدعوة العباسية .

. . . . . فمن يشنأك كان وزيرا

ونحن نعلم ان البحتري لم يكن موفقا في مجابهة الوزير لاول مرة في بغداد بذكر الخيانة ولكنه كان واقعيا وكان لايستطيع ان يخفي هذه الحقيقة وقد كان الوزير محمد بن عبد الملك ممن ياخذ بالظنة وقد نال جزاءه في آخر امر زمن المتوكل . ثم يصف الوزير وصفا حكيما صادقا او يضع خطة الوزارة على رأي حكماء الفرس وكما يريد شعراء الشام من تطبيق الحياة المثلى في الشعر .

كابدته فيها الامور فلاقت قلبي التصويب والتصعيد
صارم العزم حاضر الحزم ساري م الفكر ثبت المقام صلب العود

اشعر هذا ام نثر ام سحر حلال انظر الى هذه الموازنة صارم وحاضر وساري، العزم والحزم والفكر وثبت وصلب هذا هو المرقص .

وعلى الوزير ان يسير بهدي سيد الكتاب عبد الحميد الكاتب الاموي في الاقتصاد

وجه الحق بين اخذ واعطاء م وقصد في الجمع والتبديد
ثم لا يعرف المحابا

فستوي الناس فالقريب قريب عنده والبعيد غير بعيد

وبالحقيقة وضع البحتري خطة الوزير الكامل التي كتبها عبد الحميد الشامي قبله فنظمها البحتري الشامي شعرا ومن الحق ان تراجع القصيدة كاملة في الديوان .

ثم بعد ان يصف خلقه وصف كتابته وانشاءه وبالطبع هي المثال الاعلى عند البحتري وهي الخطة التي جرى عليها او تخلها بعد طول المراس واخذها مثالا يحتذي وهي الخطوط الاولى لطريقته .

في نظام من البلاغة ماشك م امرؤ انه نظام فريد
وبديع كانه الزهر الضاحك م في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع م مايخلقه عوده على المستعيد
حجج تخرس الالد بالفاظ م فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وبحين ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فاركن م به غاية المراد البعيد

ولا يحتاج هذا الكلام الى تعليق فهو قد بعد ماشاء عن ابي تمام وخطة ابي تمام واغترف من مسلم وعب وزاد وعدل حتى انسى، فالتعقيد عنده ظلمة واللفظ القريب هو غاية ومشرق في جوانب السمع وعوده لايخلقه ، هذه هي طريقة البحتري اشراق في جوانب النفس وبعد من التعقيد وتقريب اللفظ مع المحافظة على عمود الشعر .

ها قد اصبح البحتري شاعرا وهو في الثلاثين هو يسير هذا السير حتى يصل الى غايته اتصاله بالخلفاء :

وما زال يكابد عرق القربة ويتسكع في ترهات الحياة حتى اتصل بصديق الادباء ومألفهم وصلتهم بالامراء والخلفاء الذي كان ينفق عليهم من ماله الخاص اعني به ابا الحسن علي بن يحيى المنجم الاديب الشاعر العلامة الاخباري الراوية كما يقول ياقوت وكان خاصا بالمتوكل وندمه ومتقدما عنده فعرف قدر البحتري وباسطه وجالسه وطابت له عشرته وقد يكون انفق عليه وجعل يرتقب الفرصة ليقدمه للخليفة والفرصة لاتسنح الا في اوقاتها والبحتري يتعجل الوقت واخيرا قنع من الخليفة بنديمه ووزيره وخليله الفتح بن خاقان وكان هذا فضلا عن مقامه عند المتوكل الذي اصطفاه على جميع محبيه اديبا فاضلا بارى الجاحظ في قراءة الكتب وهذا ايضا لاتسنى مقابلته الا بعد جهد وكان النديم ابو الحسن يمني البحتري بهذا اللقاء ثم لايستطيع ان ينجز الوعد فيروح البحتري ويغدو على باب المنجم وهذا يسوف ويماطل شان من يرتقب السوانح في دور الخلافة حتى ظفر البحتري اخيرا بعد ياس

اعلي من يأمنك بعد مودة ضيعتها مني فاني آيس
اوعدتني يوم الخميس وقد مضى من بعد موعدك الخميس الخامس
قل الامير فانه القمر الذي ضحكت به الايام وهي عوابس
قدمت قدامي رجالا كلهم متخلف عن غايتي متقاعس
وازلتني حتى لقد اشمت بي من كان يحسد منهم وينافس

واخيرا ساعف الدهر وداناه الحظ وجاءت نوبته فدخل بروعة الداخل لاول نوبة ولكن على الفتح لاعلى الخليفة وهو موقن ان الامير اديب وانه يفهم الادب فانشده

ولما حضرنا سدة الاذن اخرت ... رجال عن الباب الذي انا داخله
فافضيت من قرب الى ذي مهابة ... اقابل بدر الافق حين اقابله
فسلمت واعتاقت جنابي هيبة ... تنازعني القول الذي انا قائله
فلما تاملت الطلاقة وانثنى ... الى بشر آنستني مخايله
دنوت فقبلت الندى في يد امرئ ... جميل محياه سباط انامله
صفت مثلها تصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله

ولكن اتصاله بالفتح لم يبلغه أربه من تعجيل اتصاله بالخليفة لذلك رأيناه في كثير من مدائحه الفتح يتعجل انجاز الوعد بوصوله الى الخليفة فيقول

فهلم وعدك في الامام فانه ... فضل الى جدوى نداك نضيفه
وهو الخليفة ان اسر فعطاؤه ... خلفي فان نقيصة تخليفه

والتصريح بان لقاء الخليفة هو للعطاء فقط هو من تمام الفضائل — براعة طلب من الشاعر — وهو على سذاجته في السياسه يعرف كيف تؤكل الكتف ويقول من قصيدة اخرى

فلو وصلتني بالامام ذريعة ... درى الناس اي الطالبين يحكم
اعاتب اخواني ولست الومهم ... مكافحة ان اللئيم الملوم
وقد كنت ارجو والرجاء وسيلة ... علي بن يحيى بالتي هي اعظم
ابا حسن ما كان عذلك دونهم ... لواحدة الا لانك تفهم
وما انا بالثاني عنانا عن العلى ... ولا انا بالخل الذي يتحرم
خلا ان بابا ربما التاث اذنه ... ووجهاً طليقاً ربما يتجهم

وهكذا جعل يحاول ويكرر ويطمع حتى نال ما تمنى وتم له الاتصال بالمتوكل وهي بغيته الاولى والبحتري من لدات المتوكل وقد

وافق هواه فالخليفة يجب ان يتخلص من العراق ومن شعراء العراق وشعراء الموالي وقد قلب مذهب الدولة من الشيعة الى السنـــة او بالاحرى اضطهد الشيعة وشردهم ولم يراع شواعرهم حتى رأينا احد المؤرخين !الاعلام يلقبه (بنيرون العرب) ومن هنـا نعلم كيف كان يوصف بانه مستهتر بشئون الدين بانه كان يشرب حتى يسكر ويعربد وبان مجلسه كان مجلس سفه الى آخرمافي لزوميات مؤرخي الاحزاب

ونستخلص ان البحتري وجد في اول خليفـة اتصل به مايلائم طبعه الملاءمة كلها فالبحتري ابن الحيـاة غير متزمت ولا يرهب جانب الدهر . هو هذا الاعرابي الذي رأى الحضارة فكفر بالبداوة وعب منها حتى ارتوى ووجد في الخليفة هوى فهو لايتعرض الاحزاب ولا يهتم بالطالبيين ولا يتزمت شأن الشعراء العلمـــاء وهو خفيف الظل شاعر يتنقل في فنون الشاعرية مرقص يذهب بكل هموم الدنيا فلزمه ومدحه في كل مظهر من مظاهره ورأيته ينشد مع الشعراء عنـدما عقد المتوكل لاولاده الثلاثة بولاية العهد بالتتابع وهم المنتصر والمعتز والمؤيد .

حاط الرعية حين ناط امورها بثلاثة بكروا ولاة عهـــود
قـــدامهم نور النبي وخلفهم هدي الامام القـــائم المحمود

وكان ذلك في السنة الثانية لخلافته سنة ٢٣٥ وبقي ملازمـه حتى في حله وترحاله يوم جاء الموصل .

لو كنت احسد او انافس معشرا لحسدت او نافست اهل الموصل

ويدعوه الى زيارة الشام موطنه الذي لم ينسه وقد اشرف عليه من الموصل

فمتى تخيم بالشـــام فيكتسي بـــلدي نباتا من ندالك المسبل

حتى تم له ما اراد فزار الشام ونزل دمشق وكان البحتري يرافقه ينشده بكل مناسبة يصف السير والاقامة والحل والترحال .

في كل يوم انت نازل مـــنزل جـــدد محاسنه وتارك منزل

وبالاجمال اصبح البحتري شاعر المتوكل حقيقة مدة لا تقـل عن ١٢ سنة ينشده في كل مظاهر الخلافة في الاعياد مهنئا وعنـد قدوم وفد الروم مفاخرا متهددا وعنده بنائه القصور والحدائق والـــبرك واصفا ومادحا وعند ركوبه الزو متنزهـا وفي كل مظهر من مظاهره كان مؤرخ دار الخلافة الا انه العبقري الاجتماعي الذي يعرف هوى الخليفة وهوى رجال الخليفة فلم يكن يتعرض للاحزاب الا بقدر ولم يكن يهمه دور الحريم مطلقا كما كان منـافسه علي بن الجهم واعظم فضيلة تعد له انه كان يهرب ما استطاع من التعرض للطالبيين شأن المؤمن وفي ساعة غضب دافع عنهم ورد على علي بن الجهم رداً مفحما مقذعا مع ذلك لم يغضب ولي نعمته مضطهدهم فهو يصرف الكلام .

وعددنا مدائحه في المتوكل قصائد ومقاطيع فلم تزد على ثلاثـــين قصيدة خلا الرائية في رثائه فيكون قد انشده اقل من ثلاث قصائـد في العام الواحد وهذا دون معدل المتنبي في سيف الدولة واغرب مافي الامر ان هذه المدة الطويلة كان ملازما الخليفة ولم يكن يستطيع الرجوع الى بلده الا باذن خاص ومع ذلك لم نجده ذا مال وذا ثروة الا اذا قيس بابن الرومي واترابه من الصعاليك والمفاليك .

شعره في المتوكل او في حقبة المتوكل في ذروة الشـاعرية فهو

يصلح جميعه للتغني ، هو قطع موسيقية تلذ السامع وتاخذ بلبه وتنسيه ماهو فيه هو بعيد جدا عن ظلمة التعقيد التي اشار اليها في اول مجيئه العراق ونحن ننتقصها اذا وصفناها وانما تقرر حقيقة اذا قلنا انه كان حريصا في مجلس الخلافة الايكد ذهن السامعين وهو يعلم ان خليفته غير عالم ولا فقيه هو يعلم كل العلم ، انه يهتز للندى ويطرب لهذا الغزل الرقيق ويعجب بهؤلاء الذين ينزلون على هواه في مذهبه السياسي العام والخاص في تفضيل الخلافة العباسية على الاموية بالطبع ، وعلى الطالبيين وهو الاخطر هو ينزل على راي قبيحة وحزبها في تقديم المعتز على المنتصر وهي مجازفة خاطر فيها بحياته . البحتري يعرف كل هذا ولكنه يذكره بمقدار لم يكن من طبعه هذا العنف في الحياة ولا هذا التنوع في طرق الحياة هو يحبها راضية هنيئة باسمة .

ايها الدهر لاعدمتك دهرا قف حميدا ولا تولّ حميدا
كل يوم تزداد حسنا فما تخلق م يوماً الا حسبناه عيدا

فما له وهذه الاحزاب وهذه المغامرات التي لاتوافق اعياد الحياة ان عبقريا يرى في الحياة هذا الرأي لحري ان يكون بعيدا عن كل مايؤلم الحياة ولا باس ان يكون بعيدا عن كل مايؤذي الذهن في تفهم مقاصده من البيان فهو مشرق الديباجة ناصعها يتبع عمود الشعر ولندرس من قصيدة .

عذيري فيك من لاح اذا ما شكوت الحب حرقني ملاما

هذا مطلع غزلي على عادته يقول .

الام على هواك وليس عدلا اذا احببت مثلك ان الاما

لقد حرمت من وصلي حلالا وقد حللت من هجري حراما

انظر هذا التلاعب بالبيان وهذه القوافي السهلة وهذا الارصاد الشيق فضلا عن هذا الاشراق الوضاء الى ان يقول .

تناءت دار علوة بعد قرب فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا فليس يزورنا الا لماما
وربت ليلة قد بت اسقي بعينيها وكفها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا وافيناه ضما والتزاما
وقد علمت باني لم اضيع لها عهدا ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محلتنا عراقا مشرقة وحلتها شآما
فلم احدث لها الاوداد ولم ازدد بها الا غراما

ولا بد من ملحوظة على هذا الغزل المرقص مستميحا عذرا على قطع هذه السلسلة الذهبية والتعليق على هذا القول الفضي الرنة فهذا التفكير بعيد كل البعد عن علوة عروس شعره ولم تكن علوة الغساله ممن يسقى بعينيها وكفيها المداما اما افناء الليالي فالله اعلم .

اريد ان اجهر ان هذه الاباحية وهذا الشره في الحياة لم يكن معهودا بالبحتري يوم كان في الشام خدناً لعلوة بنت زريقة الغسالة انما هي حياة دجلة وحياة القصور التي تفني الليالي بالضم واللثم والعناق وما ذكراه علوة وتشوقه اليها الا حنينه اللاهب الى الشام ومرابع انسه ولهوه فهو دائم الحنين في كل مناسبة وكأنه كان في

اسر شديد الوثاق في هـذه القصور وما لجـوءه الى الطيف (عمود الشعر) إلا تحد لابن قيس الرقيات ومن جاء بعـده ولا حرج من الاطياف في كل مظهر

ويلاحظ ان البحتري يختم هذا الغزل بالنطرف كأنه يشبع نفسه ويحسن ان نقابل هذه الملحوظة بشعره لزيادة التعمق في هذه النظرة يقول في قصيدة ضادية فاخرة في المتوكل نفسه.

لست انســـاه باديا من قريب يتثنى تثـــني الغصن غضا
واعتذاري اليه حـــتى تجافى لي عن بعض ما اتيت واغضى
واعتلاقي تفاح خديه تقبيـــلا م ولثما طورا وشمـــا وعضا

فمتى وصل الى هذه الحالة النفسية والى هذا التقصي والشره نعلم حالا ان الغزل قد انتهى وانه بدأ بالمديح وعليه كانوا يقولون ان البحتري لا يحسن التخلص على عادة القدماء ومتى علمنا ان للشعر العربي انظمة خاصة منها ان هذا الغزل يتقدم المديح صار على الشاعر ان يختار ما يراه موافقا في صلة هذا الغزل بالمديح فالبحتري يرى ان مرحلة الغزل يجب ان تنتهي بهذا العنف وهذه القوة التي تترك ابعد اثر في النفس وتصل الى الغاية حتى يمكن ان تستأنف الاصغاء في مديح لا يقل عنفا.

بعد ان يبلغ في حب علوة الزيادة في غرامه ينتقل حالا الى المديح.

خلافه جعفر عـــدل وأمن وفضـــل لم يزل يسع الانام
غريب المكـــرمات يرى لديه رقاب المال تهتضـــم اهتضاما

الى ان يعدد مفاخره وهي مفاخر جدوده

تعد لك السقاية والمصـــلى واركان البنيـــة والمقاما

مكارم قد وزنت بها ثبيرا فلم يرجح وطلت بها شماما
وما الخلفاء لو جاروك يوما بمنتلقيك رايا والتزاما
الست أعمهم جودا وازكا هم عودا وامضاهم حساما
ولو جمع الأئمة في مقام تكون به لكنت لهم اماما

هذا مديح ترتاح اليه نفس المتوكل هو يصف خلافته بانها عدل وامن وفضل وهي مجموعة الفضائل والسلام على الشجاعة والندى عمود الشعر ، القديمة ثم يفضله على الامويين الذين لم يكن لهم السقاية ولا كلما يتعلق بالبنية بل كان لهم الهواء كما هو معلوم وقد انقضى فخره في الجاهلية وبالطبع لايذكر الطالبيين لارهاف حسه بل يفضله على الخلفاء العباسيين فهو امامهم لو جمعوا في مكان او كانه شعر بان المتوكل يطالبه بتفضيله على الفاطميين ايضا فيصيح

وليس بمسلم من لم يقدم خلافتكم ولو صلى وصاما

ولماذا هذا التقديم فاذا كان بالنبوة فالطالبيون افضل ولكن

شهرتم في جوانب كل ثغر ظباة البيض والاسل المقاما
وقدمتم وفي الاقوام كره على الغمرات تقتحم اقتحاما

هذا هو فضل العباسيين من اهل البيت انهم الذين حموا الخلافة بسيوفهم وانتزعوها بشيعتهم وعزمهم وهي خطة وضع اساسها البحتري وسار بسيرتها ابن المعتز فاوضحها ووسمها خلافا لخطة مروان الذي كان يستعمل الفقه والفرائض وهو ابعد مايكون عن الشعر اليس الضرب والحرب والشدة والحماسة من ينابيع الشاعرية ،

وبعد هذا يتقدم ليذكر السبب في نظم هذه القصيدة والباعث

اليها وهو صفة القصر المتوكلية كما يسميه وهو قصر او قصور في سر مرا لم يزل من اثارها الى اليوم ولا يخفى ان البحتري يجيد صفة القصور وما يحيق بها من الرياض وكل ما يتعلق بهذه المدنية :

ارى المتوكلـــية قد تعالت محاسنها ، واكملت الـــتماما
قصور كالكواكب لامعـــات يكدن يضئن للساري الظـلاما
وبر مثل برد الوشي فيـــه جنى الحوذان ينشر والخزامى

الى ان يقول :

تضاحكها الضحى طورا وطورا عليها الغيث ينسجم انسجـاما
ولو لم يستهل لهـــا غمام بريقه لكنت لهـا غمـامـا

والبحتري يعرف هؤلاء الخلفاء وان المديح يلائم طبعهم اذا كان سهلا قصيرا ذا مواقف حادة شأن شعرائنا في هـذه الايام من ذكر الاعلام المختصة بالعرب والاسلام يستجدون بها التصفيق .

اعظم هاشمية قيلت ٤ شوال سنة ٢٤٧ هـ

كتب التاريخ مجمعة على ان المتوكل كان يؤثر ـ المعتز ولي العهد الثاني على ولي العهد الاول المنتصر ولم يكن يخفي هذا الميل وهذه سنة استنها الرشيد وكانت شرا على الخلافة في بغداد وسيلا طاغيا للفرس على العرب حتى اذلتهم ومع كل شدة الرشيـــد وحزمه لم يستطيع ايقاف هـذا التيار واذا دخلنا البيوت من ابوابها رأينا ان لزبيدة دخلا في تقديم الامين على المأمون وقد كان ذلك واضحا في التاريخ وقريبا الى الاذهـان زمن المتوكل ولكن لم يرعو ام المعتز اجمل نســـاء عصرها وافتنها تغريه بتقديم ابنها وتفضيله خلافا للعهد والحق والامانة

ولما اعيت المنتصر الحيلة كان من الطبيعي ان يرتمي في احضان اعداء الخليفة وهي غلطة لم يكن يدركها هـذا الامير الناشئ وازداد النفور بين الخليفة وولده المنتصر حتى كان يوبخه في مجلس الخلافة ويقلب لقبه الى المنتظر اي منتظر موت ابيه وهذا الموقف زاد النفور واصبح ضرباً من الاستيحاء وكان تناجيا ثم همسا ثم جهرا حتى حان وقته فكان حقيقة واصبح جميع من في القصر يعلمون ان لابد ان تقع الواقعة والجميع ينتظرون اليوم الذي يخلع فيه الخليفة ولي عهده وينادي بالمعتز ومنهم من قال الموالي اهل فتك فهم لايعلمون هـذه الحيل فلا معنى للخلع وانما الدواء الناجع هو القتل وجاء من يخبر المنتصر وحزبه ان ليلة ٤ شوال سنة ٢٤٧ هي الموعد المضروب للقضاء على آمالهم فلم يبق للتعقل من سبيل وتسلل احد ابطالهم الاتراك واسمه باغر وكان جلدا لاتاخذه في عزيمة هوادة تسلل من دار الحريم ودخل اخر الليل والمتوكل وجلساؤه يشربون اوهم اصبحوا ثملين فضرب الخليفة فقتله ورمى الفتح عليه نفسه فقتل الفتح ايضا وكان البحتري حاضرا فناله ضربة في ظهره بقي اثرها الى اخر عمره ثم نودي في الصباح ان الخلفية وندمه سكراً فعربد الخليفة فقتله الوزير فقتل الجند الوزير بالخليفة وكانت ايام روعة وشدة انشد فيها البحتري هذه القصيدة التي نعني وهي من اجود المراثي لملابستها الواقعات ومع ان شعر البحتري شعر اعياد الا انه اجاد في هـذه القصيدة كل الاجادة لانه ساهم في شدتها ولان له موقفا اخر في الرثاء ولا تنسَ قوله في رثاء بني حميد من تمام الوفاء ان تفضل المراثي

المدائح .

يقف البحتري في بدء القصيدة ، حائرا لا يدري كيف يبدأ ولا حيلة في تخير الالفاظ وسبك المعاني فهو ينظم بعاطفة لاهبة وحماسة لا تعرف الهوادة فليرجع الى طبعه وليعد الى الحقيقة الواقعة وينشد :

محل على القاطول اخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كان الصبا توفي نذوراً إذا انبرت تراوحه اذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم ثمّ عهده ترف حواشيه ويورق ناضره

وكانه لما وصل الى هذا اعاد الابيات فلم تعجبه ولا تليق برثاء خليفة ولا بشعر البحتري فعدل ودخل الموضوع حالا :

تغير حسن الجعفري وانسه وتعرّض بادي الجعفري وحاضره

ولا اظن ان للجعفري باديا ولكن البادي والحاضر مجاز يشمل جميع انواع الاراضي .

تحمل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواءً دوره ومقابره

وما اشد وقع هذا الكلام في النفوس الدور والقبور سواء .

وهنا تطمئن نفس الشاعر وتفتأ ثائرته فيعود الى طبعه البحتري نائحا وان يكن الاضطراب لما يزل يتخلل الابيات ولا يربط بينها شان شعر البحتري :

اذا نحن زرناه اجدّ لنا الاسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

ثم ينتقل فيقول :

ولم انس وحش القصر اذ يعسر به واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره

ثم جعل يصف وحشة هذا القصر وصفا بحتريا بارعا ويقابل بين حالته زمن الخليفة وحالته بعد القتل الى ان يصف الواقعة وصف رأي عين .

تخفّ له مغتاله تحت غرة　　واولي لمن يعنا له ان يجاهره

اما الصدر فهو الحقيقة بعينها واما العجز فغريب يدل على ان البحتري لم يستجمع قواه بعد اذ كيف يجتمع الاغتيال والمجاهرة ثم يذكر هذه الدخائل التي كان يعلمها :

فما قاتلت عنه المنايا جنوده　　ولا دافعت امـلاكه وذخائره

ولا نصر المعتز من كان يرتجي　　له وعزيز القوم من عز ناصره

هنا اعلن الحقيقة بدون مواربة اما الجنود فمعهودة في دور الخلافة واما الاملاك والذخائر فهي عند قبيحة صاحبة حزب المعتز وامه وهذا المعتز الذي كان يدافع عنه ابوه اين حزبه واين صولته ؟ من هم اصحاب المعتز بالطبع هم اصحاب الخليفة .

تعرض نصل السيف من دون فتحه　　وغيب عنه في خراسان طاهره

وهو يعني بالطبع الفتح بن خاقان وزيره وخدنه في الحياة ولو اتسع خيال الشاعر وعصره لقال انه ذهب في الاخرة ليكون له وزيراً ونديما واما طاهر فهو مجازي يعني عبيد الله بن طاهر وكان واليا في خراسان .

ولو لعبيد الله عون عليهم　　لضاقت على وراد قوم مصادره

وهو يعني عبيد الله بن يحيى بن خاقان الوزير وكان ساعة القتل في حجرة لا علم له بشيء

ثم يرجع الى دينه وحكمته فيقول .

حلوم اضلتها الاماني ومـــدة تناهت وحتف اوشكته مقادره

اما الحلوم المضلة فالتلهيح اليها عرض مسهب واما المدة التي تناهت والحتف الذي اوشكته اقداره فهو تعزية المفجوع البائس وهنـــا يصف ساعة القتل والقتيل

وم غتصب للقتل لم يخش رهطه ولم تحتشم اسبـابه واواصر
صريح نقاضاه السيوف حشاشة يجود بها والموت حمر اظافره

الا لله هذا المنظر وهذا الوصف البحتري تصور هـذا القتيل وما اكثر حشمه واواصره كيف خرّ صريعاً ووقف الموت حمر اظافره فوق راسه وهذه السيوف التي تتقاضاه الحشاشة واغرب في الخيـال ماشئت واغمض عينيك وكأن البحتري خشي ان يـلام على موقفـه جبانا رعديدا فصاح

ادافع عنه باليدين ولم يكـن ليثني الاعادي اعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف اساوره

وهذه شهادة صريحة ترغم من قال انه لم يكن حاضرا اما هـذا السيف الذي يتوق اليه ففيه نظر لانه في ساعة شبابه وهو في العشرين يقول لاميره يوسف بن محمد

ورأيتني فـرأيت اعجب منظر رب القوافي في القنا المتقصد

فهو نفسه كان يعتقد ان رؤيته شاكيا هي اعجب منظر والحقيقة

انه اراد ان يدافع كما قال باليدين فناله ضربة في ظهره لذلك تذكر الشعراء قبله كالمهلهل وامرئ القيس كيف كانوا يقسمون في مثل هذا الموقف فقال .

حرام علي الراح بعدك او ارى دما بدم يجري على الارض مائره

هذه آلية شاعر ثم استدرك حالا فقال

وهل ارتجي ان يطلب الدم واتر بد الدهر والمـوتور بالدم واتره

فيغالط نفسه او يجهر بالحقيقة من الذي يهريق دم القاتل اذا كان القاتل هو الوريث وهو صاحب الثأر ثم صرح بعد هذه الجمجمة المفضوحة.

اكان ولي العهد اضمر غـدرة فمن عجب أن ولي العهـد غادره

اما انه عجب فنظرة شاعر ولكن من تتبع الحقائق والتاريخ يعلم انه كان بين اثنين اما ان يكون ذئبا او حملا فاختار الاول ، وبعيد عن الشاعر هذا المنطق انه شاعر يفهم بعاطفته وهـــو واقعي لايدرك المعلولات ولا يكد ذهنه ولا يحاكم ولا يجادل .

فلا ملي الباقي تراث الذي مضي ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا

من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

هذا دعاء ارملة كما يقال والبيت الثاني يشير الى المثل من قتل بالسيف بالسيف يقتل ثم عاد الى البكاء بعد ان شفى غليله بالدعاء

لنعم الدم المسفوح ليـلة جعفر هرقتم وصبح الليل سود دياجره

ثم صرح بما في خاطره واظهر حزبيته وخاطر بمكانته .

كانـكم لم تعلمـوا من وليـه وباغيه تحت المرهفـات وثائره

من هذا الولي غير المعتز .

واني لارجو ان ترد امـوركم الى خلف من شخصه لايغادره
مغلب اراه تخـــاف أناتـــه اذاالاخرق العجلان خيفت بوادره

وهذا الختام طبيعي في هذه القصيدة فهو يفضل المعتز على المنتصر ولا يخاف شره فهو الاخرق وهو العجلان (وكان المتـوكل يلقبـه المنتظر) .

هذه هي القصيدة لم نحرم منها غير خمسة ابيات فيها وصف مسهب لحياة القصر زمن زهو الخلافة واقل نظرة في هذه القصيدة تعلم صدق البحتري والصدق آفة الشعر ثم هناك آفة اخرى وهي هذا الاضطراب والانتقال السريع من موضوع الى آخر ثم الرجوع اليه بعد بيتين او ثلاثة وهذا القلق في ترتيب الابيات ووصفها من محسناتها فكان كل بيت او بيتين يهز السامع هزا عنيفا وهو المقصود من الرثاء .

بعد الواقعة :

كانت الصدمة شديدة على البحتري لم يكن يدور في خلده ان احد الموالي يجرؤ ان يمد يده فيقتل الخليفة واذا جرى فلا بد لجميع المسلمين ان يثأروا بالخليفة لذلك غضب غضبة على ولي العهد وتوعـد وتهدد ولكن لابد من ان تنجلي الحقائق وان تعود الامور الى نصابها الطبيعي فلم تقم الثورة حتى لم يعلن قتل الخليفة او بالاحرى اشاعـوا ان القاتل هو الفتح نفسه في ساعة عربدة وان الخليفة الجديد قتـل القاتل اذن فالامر طبيعي وولي العهد اصبح خليفة حقا والبحتري وحزب المعتز ماذا كان مصيرهم ؟ غاب البحتري عن سرمرا وبعضهم يقـــو

انه رجع الى الشام الى منبج ولكن لم يذكر البحتري مثل هذا الفرار او الرجوع بل يصرح في قصيدة قالها في هذا العصر انه في طريقه الى الحج وعندما يمدح المنتصر الجديد يقول انه حج وهذه القصيدة برهان جلي على شعره الخاص في هذه الحقبة يقول فيها انه في الاربعين من عمره وبعيد عن دور الخلافة يطلق لنفسه العنان وهو يرجع الى بدويته وعنجهيته فهي خير مثال على شعره الناضج في القمة وهذه هي بالاختصار .

احبب الي بطيف سعدى الآتي وطروقه في اعجب الاوقات
اني اهتديت لمحرمين تصوبوا لسفوح مكة من ربى عرفات

هو يذكر بصراحة موقعه هو في مكة ولكن على طريقته يذكر الطيف وهذه المرة هو طيف سعدى لا طيف علوة ولا باس فهي عروس شعره مهما تختلف الاسماء اما ان طرقته في اعجب الاوقات فهو تقرير حقيقة هو منصرف عن الغزل واللهو هو في مناسك الحج ومشاعره هو محرم ولكن لا باس فهو طيف وما على الطيف حرج والبحتري الشاعر يقفو اثر شعراء الحج والذين يؤمون البيت الحرام من اول الاسلام الى العباسيين هم يتلحون بذكر الحج الا تراه يغرف القول المشهور

هواى مع الركب اليماني مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق
عجبت لمسراها وكيف توصلت الي وباب السجن دوني مغلق

ليس هذا التحرج للمشاعر والاحرام فهو يصرح

لولا مكاثرة الخطوب ونحتها من جانبي لكنت من حاجاتي

اية خطوب يعني وماله والخطوب في هـــذه المواقف بالطبع هو يناجي نفسه بانه هارب وليس الحج من نيته وقد ضاقت به العراق بعد موقفه من مولاه وخليفته وعند ذلك يذكر حاله ولماذا هـو شريد طريد لو كان قومه اعزة لكان مرهوب الجانب .

ابني عبيد شد ما احترقت لكم كبدي وفاضت فيكم عبراتي
التي مكارمكم شجى لي بعدكم واري سواق مجدكم حسراتي

وهنا يسترسل في ذكر قومه ويتاوه على فقدهم وضعتهم بعـــد الرفعة ولكن اني الماضي ان يعود فليتنظر الى نفسه فهو عصامي يجب ان يترك لبنيه ماحرمه اباؤه وهنا يبلغ شعره القمة فهو صادق كل الصدق وهو فنان ماشاء

ابني اني قـــد نضوت بطالتي فتحسرت وصحوت من سكراتي
نظرت الي الاربعون فاصرخت شيبي وهزت للجنو قناتي
واري لذات ابي تتابع كثرهم مضوا وكر الدهر نحو لذاتي

هذا كلام تقي مشرق لايحتاج الى شرح فنضو البطالة تفوق جاهلية زهير وصراخ الشيب يزيد على الفرزدقية وحنو القنـــاة تسمو على الاخطلية والحقيقة ان هذا المعدن البحـــتري لم تظهر جواهره الا لا طواعية البيان .

والقصيدة كلها عامرة فلتراجع في الديوان ففيها فخر وحماسة وبالطبع لايذكر فيها انه غني هي مثال شعر البحتري القوي تتصل اجزاؤهـا كانها السلاسل وتصفو معانيها وترق وتقوى في وقت واحد هي رقيقة تدخل السمع بدون استئذان ولذيذة في كل مظهر من مظاهرها وقوية

لايعتريها ضعف ولا تجوز ولاسناد قافية ولا عيب هي الطريقة الشامية المثلى آخذ بعضها برقاب بعض كل نتيجة يتقدمها ما يبرزها واضحة اللفظ مؤات والمعنى واضح وهذه النبرات الحادة تكاد تحرك الجماد المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي ٩٤٧ — ٢٥٦ هـ .

هي شر حقبة بليت فيها الخلافة العباسية لم يعش المنتصر الا ستة اشهر وخلفه المستعين وبقي سنتين في سر من رأى ثم كانت الفتنة بين الموالي الاتراك في سر من را والعرب في بغداد وقيام المعتز ثم خلع المستعين ٢٥٢هـ ومبايعة المعتز بالاجماع ثم قتله ٢٥٥ ثم مبايعة المهتدي وقتله بعد سنة ولكل من هؤلاء الخلفاء وزراء وقواد وله حزب والبحتري قد الف هذه الحال ولم يعد الى غلطته في مقتل المتوكل بل كان يمدح كل خليفة ولا باس ان كانت خلافة المستعين بحالة لاتوجب المديح ولا سيما في آخرها فهجاه البحتري امام المعتز وللايضاع تخص كل خلافة بخصائص .

خلافة المنتصر — تلقاها البحتري بوجل شديد حتى غاب عن سر من را ورأيناه وقد اتفق زمن الحج لان الواقعة كانت في ٤ شوال وكان الحج كما هو معلوم على النياق يحتاج الى هذا الوقت ثم يعود عندما يعلم ان المنتصر غير من كان يأمل فهو تقي وهو ورع وقد اعاد الامور الى نصابها وقرب الطالبيين وردّ فدك الى ابناء فاطمة ولم يبق في قلبه للضغينة موضع فليرجع ويتقبله متسامحا غير ذاكر له مايؤثر فيه فينشده :

تبسم عن واضح ذي أشر ونظر عن فاتر ذي حور

الى ان يقول :

الم تر للبين كيف انبري وطيف البخيلة كيف اختصر
وماذا ارادت الى محرمين يجرون وهنا فضول الازر
سروا موجفين لسعي الصفا ورمي الجمار ومسح الحجر
حججنا البنية شكرا لما حبانا به الله في المنتصر

فهو يعلن انه حج شكرا لله لخلافة المنتصر ونحن نعلم ان المنتصر تغاضى عن ذنبه ان ذكر ام لم يذكر والقصيدة من غرر شعر البحتري او ان شعره في هذا الوقت اصبح في القمة فكله غرر بصعب الاختيار .

وآل ابي طالب بعدما اذيع بسربهم فابذعر
وصلت شوابك ارحامهم وقد اوشك الحبل ان ينبتر
قرابتكم بل اشقاؤكم واخوتكم دون هذا البشر
وان عليا لاولى بكم وازكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضله والحجول م يوم التفاضل دون الغرر

والاصلح ان تقرأ كلها وهي جيدة .

المستعين : كانت ايامه فتنة وقف موقف من ينقم من قتلة المتوكل فهاج الفتنة بعد ركودها ثم هم التنفيذ فقتل باغرا قاتل المتوكل فقام الاتراك يطلبون باعطياتهم وهي شرارة الفتنة ولما رأى الخليفة ان الامر خرج عن طور التهديد ذهب الى بغداد واعتصم فيها بدار ابن طاهر في الشماسية وجاء الاتراك يستغفرون عن ذنبهم ويعدون المواعيد . ولكن لم يامن لهم ولما يئسوا منه اخرجوا المعتز من السجن ونادوا به خليفة وهجموا على بغداد وكانت حرب شديدة ، الموالي باسم

الخليفة المعتز والعرب والفرس باسم الخليفة المستعين، دامت الحرب ثمانية اشهر واشتدت المجاعة والضيق في بغداد واخيرا سلمت وقر المستعين متنازلا عن الخلافة فيما شطر الحجاز فلحقوا به وقتلوه شر قتلة .

مدائح المستعين اربع وربما ضمت اثنان منها الى واحدة لموافقتها في الروي والقافية والثانية غير مصرعة وكلها ترمي الى هدف واحد وهي انه ارسل ابنه العباس امير الحج وان لم يذكر التاريخ ذلك وهذه المدائح ضعيفة جدا لا تصلح ان تنسب الى البحتري ثم هناك وزير المنتصر ابن الخصيب وكانت الاتراك قد تقمت عليه كما تقمت على وزير المستعين تامش وكاتبه شجاع فقتل تامش وشجاع ونفي ابن الخصيب الى اقريطش (كريت) شغل البحتري مديحه في هذه الاحداث مما يدل على انه اصبح يؤرخ حادثات الخليفة وهي مخزية وهو يريد الرفعة والسمو لذلك ضعف شعره حتى لا يستحق ان يمثل عليه .

المعتز : مدة خلافته اربع سنوات ونصف .

بويع المعتز في الفتنة وما ابعد البحتري عن الفتن وعن الاحزاب ولكن هذا الخليفة اعاد الى نفس البحتري ايام الرخاء رخاء المتوكل وايام الجالس المظمى لم يكن البحتري في حزبه يوم قتل المتوكل فلماذا لا يعطف عليه في سجنه يوم المستعين ويظهر ان صديقه ابا معشر الفلكي كان يلازمه في هذه الايام المصيبة وقد اشار عليه بزيارة المعتز في سجنه ثم لما اجتمعت البيعة للمعتز جاءه البحتري وكان ان انشده وغمز من قناة المستعين بقوله .

بكى المنبر الغربي اذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه
وكيف ادعى حق الخلافة غاصب حوى دونه ارث النبي اقاربه

وهذه الحقيقه كان يعرفها كل الناس اذ كانت البيعة بعد المنتصر المعتز فليس فيها شيء من الشاعرية ولكن لما انتهى الى قوله

الى واسط خلف الدجاج ولم تكن لتذشب الا في الدجاج مخالبه

ضحك الخليفة الجديد واستعاده الابيات اذ اصابت هوى في فؤاده ثم امر خادمه فاعطاه ستة الاف دينار واشار اليه بشراء الضياع كما مر

اصبح البحتري غنيا وقد وجه هذا الخليفة الشاب الذي لم تزد سنه على الثامنة عشرة وقد ورث عن امه الجمال والرواء وعن ابيه حب السرور والشرب ومتى اجتمع الجمال واللهو والشباب عند البحتري حلق في سماء الشاعرية فكيف لو اضيف اليها العطاء الرحب كما صرح الخليفة منه ومن وزرائه واسبابه ؟

اصبح البحتري في قمة الشعر وقمة السياسة اذ كان قد مارسها ولكن لم يطمع في ان يعمل بها كما غلط امامه ابو تمام لزم دار هذا الخليفة الشاب يؤرخ حادثاتها ويقول في كل شيء ففي مدة اربع سنوات اربى ماقاله في اثنتي عشرة سنة لزم فيها المتوكل وفي الديوان ثلاثون مدحة بين قصيدة ومقطوعة وعندما اردنا ان نمثل على مديح البحتري اتخذنا احدى هذه المدح .

اربع سنوات كانت عامرة بالحياة الرافهة وكان الموالي قد هدءوا بعد تلك الهزة العنيفة منذ فتنة المستعين وكأن المعتز نسي او غفل عن هريب الدهر فهو منصرف الى مجالس الانس والى ملذات الشباب وام

قبيحة تصرف الامور وتختزن الاموال حتى حان الحين وهاجت ثائرة الجند ولم يكن الطلب سوي خمسين الف دينار فنفض الخليفة كفيه من الاموال فقالوا في دار قبيحة وهذه لم تقدر الامر حق قدره فرفضت وهؤلاء الجند لايفهمون هذه التسويفات وقد شاقهم حب التسلط فهاجموا الخليفة الشاب وقتلوه شرّ قتلة ثم هاجموا بعده دار قبيحة وكانت قد هربت فوجدوا فيها من الاموال كما يقول التاريخ ـ ملايين غير الجواهر والنفائس

لم ترع البحتري هذه النتيجة فقد اصبحت مألوفة لديه ولم يقل فيها شيئا بل تناسى اعز عهوده واعز الناس اليه وقبع في داره ينتظر خليفة اخر يلزمه ويمدحه .

كل هذه المعتزيات صالحة للتمثيل فدونك هذا المذهب الذي كان زمن المعتز وفي دار الخلافة .

ايهـا الآمري بترك التصابي　　رمت مني ماليس في امكاني
خل عني فما اليك رشادي　　من ضلال وما عليك ضماني
وندیم نبهته ودجى الليل م　　وضوء الصباح يعتلجان
قم نبادر بها الصيام فقد م　　اقمر ذاك الهلال من شعبان
بنت كرم يدنو بها مرهف م　　القد غرير الصبا خضيب البنان
ارجوانية تشبه في الكاس م　　بتفاح خده الارجواني
بات احلى لدي من سنة م　　النوم واشهى من مفرحات الاماني

ومن الحرام ان نعلق على هذه الابيات .

كان الوزير بغا ابن يسمى يونس وكان شابا بعمر المعتز او اصغر

كما في الاغاني وكان جميلا يروق جماله المعتز فدعا يونس الخليفة الى بقعة جميلة وتم السرور وكان البحتري من المدعوين فهاجت هذه المظاهر الشباب والرواء والخضرة شاعريته فانشد

شاهدت ايام السرور فلم اجد يوما يسر كمثل دعوة يونس
ادنى مزار وسط احسن بقعة واجل زوار لابهى مجلس

ويختمها :

لاتسقباني بالصغير فانه يوم تليق به كبار الاكؤس

ومن الانصاف ان نقول ان البحتري في زمن المعتز قد اثرى واصبح يعني بالحياة والاسرة ولكن كان مقيداً بقيود الخلافة لايستطيع مفارقة دارها الا باذن

هل اطلعن على الشام مبجلا في عز دولتك الجديد المونق
فارم خلة ضيعة تصف اسمها والم ثم بصبيحة لي دردق
شهران ان يسرت امري فيهما كفلا بالفة شملي المتفرق

اما قوله ضيعة تصف اسمها فهي غاية يريدان يقول ضيعة ضيعة اي ضائعة بغيابه وبالطبع قد ابتاعها زمن المعتز وهو زمن قصير لايصلح فيه رم الضيام :

اما رايه في مديح الموالي كما يزعم بعض الادباء وتفضيله اياهم على العرب فلا يحتاج الى دحض متى علمنا انه كان وسيلة للوصول الى المعتز يوم نصروه على المستعين وحزبه ونظرة صادقه تعلمنا رأي البحتري بالعروبة والتغني بالامجاد .

وفي هذا المديح الرائع وصف هذه القصور والحدائق ووصف الزو

وهذ المفاداة وذكر القادة والعمال فهو طبيعي وسنعالجه في موضوع آخر .

المهتدي — بويع له يوم خلع المعتز / ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ وخلع في ١٧ رجب سنة ٢٥٦ .

لم نعجب ان نرى البحتري اصبح يلبس لكل حلة لبوسها فهو في القمة من الاستهتار زمن المعتز المستهتر ثم لم يلبث ان امسى متزمتا في هذه السنة التي ولي فيها المهتدي الخلافة اربع قصائد في سنة واحدة وهي ان لم تعدل قصائد المعتز ولكنها كلها قصائد معمولة ليس فيها مقطوعة والمهتدي هذا بعيد عن الزهو والغطرسة دين متزمت يلبس الصوف تقية او ارضاء للحياة الهادئة بعد تلك الزلازل يقول لها البحتري ويعيد .

ولا مالت الدنيا به حين اشرقت　　له في تناهي حسنها واحتشادها
لسجادة السجاد احسن منظرا　　من التاج في اجفاره وانتقادها
وللصوف اولى بالائمة من سبا　　م الحرير وان راقت اصبغ جسادها

المعتمد — بويع المعتمد بعد خلع المهتدي وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحتري وكانت الخلافة بالاسم للمعتمد اما حقيقتها فكانت لاخيه الموفق وكان يحمل اسم ولي العهد وكان يصرف الامور حتى الانفاق على الخليفة كما يشاء والخليفة المعتمد الذي عزى اليه البيان المشهور ان.

اليس من العجائب ان مثلي　　يرى ماليس محتاجا اليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا　　وما من ذاك شيء في يديه

وليس هذا القول بمجاز فالموفق قد ضبط الامور ورم الخلافة

وابعد الموالي عن شئونها وكان سياسيا داهية وبطلا مغوارا قامت في ايامه حوادث جمة اشهرها ثورة الزنج في البصرة وقد اتي الامرين من هول صاحب الزنج ثم خراب البصره وقد اصبح مثلا ولكنه ظفر به اخيرا وقتله شر قتله وشرد الزنوج اصحـــابه وهناك امور اخرى كاستقلال ابن طولون بمصر ومواقعة جيوش الخلافـــة وكانت ديار البحتري في وسط هذه المعارك فاحيانا ترد جيوش الخلافة ابن طولون الى الشام ما وراء الفرات واحيانا تقوي جيوش ابن طولون فتعـــبر الفرات حتى تصل الى الموصل على دجلة ومات ابن طولون ولم تنتـــه هذه الحالة بل قام ولده خمارويه يتابع اعمال ابيه ومات الموفق ايضـا قبل ان يصبح خليفة وبويع لابنه العباس بولاية العهد ثم اصبح خليفة باسم المعتضد ولكن البحتري وقد عاش مدة خمس سنوات في خلافته لم يذكره البتة مما يدل على انه كان قد ترك العراق ولزم بيته ..

شعر البحتري في خلافة المعتمد شعر تام النضج ففي هذا العمر الطويل مايزيد ٢٥ سنة بلغ شعره الاوج وجاء باجوده ففي هـذا العصر كانت سينية الايوان ودالية الذئب وفي هذا العصر كانت المحاورة الفذة في الادب العربي بين البحتري وعبيدالله بن عبدالله بن طاهر فضلا عن وزارة ابي الصقر الوزير الشكور وما اسبغ عليه البحتري من جواهر شعره وسنفرد لكل واحد من هذه القصائد فصلا مبتدئين بالمحاورة .

المحاورة

كان ابو العباس بن بسطام كاتبا بمقام الوزير وكان ممدحا جوادا مدحه البحتري بسبع قصائد وهو يذكر عمره في هذا المديح شـأنه في كثير من اطوارة فيقول ..

اجدك ان الدهر اصبح صرفه　　يجد وان كنا مع الدهر نلعب
وقد ردت الخسون رد صريمة　　الى الشيب من ولى عن الشيب يهرب
فقصرك اني حائم فمرفرف　　على خلقي او ذاهب حيث اذهب

هذا تصريح . فهو حائم على خلقه وذاهب حيث يذهب اي قد استحكم شعره ومذهبه في الحياة وعلى هذا الاستحكام نريد ان ننظر في هذا الخلق وفي هذا الشعر .

والبحتري يقول بمناسبات كثيرة ان شعره كان يأتي عفوا

زورة قيضت لايوان كسرى　　لم يردها كسرى ولا ايوانه

وسنري هذا ظاهرا في مذهبه في هذه المحاورة يبدؤها غير متعمد احدا

من قائل لـلزمان ماربه　　في خلق منه قد بدا عجبه
يعطي امرؤ حظه بلا سبب　　ويحرم الحظ محصد سببه
نجهل نفع الدنيا فندفعه　　وقد نرى ضرها فنجتلبه
يسرك الامر قد يسوءكم　　نوه يوما بخامل لقبه

يقول البحتري هذا القول وهي زفرة شعرية لايعني بها احدا هي تعبر عن رأي كل اديب لايقنع بنصيبه ومقامه في هذه الدنيا ويرى غيره ممن هم دونه في مناصب عالية وحظهم من دنياهم وافرا ثم يبدي هذه الآراء حتى يصل الى قوله

عندي ممض من الهناء اذا　　عريض قوم احكه جربه
ولي من اثنين واحد ابدا　　عرض عزيز الرجال او سلبه

هذه اول مرة نرى البحتري حادا في حكمه ولا ندري السبب في ذلك اما ان يدفع له السلب او انه ينال من عرضه هذا حكم بشاري او دعبلي وكلاهما بعيد عن طبعه ويظهر ان مفاضلته بين مسلم بن الوليد ودعبل كانت قريبة العهد تأثر بدعبل هذا التأثر في هذا القول.

فاصل بين الاخوان عدمي وعن ظلمـــاء ليل تفاضلت شهبه

هو صريح لا يعرف الخليل الا زمن العدم لان كل الناس اخوانه زمن الرخاء كما انه لا تعرف قدر النجوم وتتفاضل الا في الظلام.

ثم يضع الخطة المثلى للخلال الراقية :

لا احفل المرء او تقدمه شتى خـــلال اشفها ادبه
ولست اعتد للفتى حسبـا حتى يرى في فعـاله حسبه

هذا معنى ساذج جعله الصلة بين المقدمة بهذه الاحكام ومديح ابن يسطام ثم يأتي هذا المدح الذي يساوي فيه بين الانام وهم درج من سوقة وخلائف

ماسمع بهذه القصيدة عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ولاسيما قوله:

يسرك المرء قد يسوءوكم نوه يوما بخـــامل لقبه

حتى تثور ثائرته كانه حسبه يعرض به وعندي ان البحتري كان في مجلس ابن طاهر هذا وكان صديقه وكان ممدوحه وفي هذه المجالس كانوا يجولون جولات ادبية بقي لنا من اثرها هذه المفاضلة بين مسلم ودعبل وكم لهم مثلها وكم كانوا يتقارضون الشعر ويفتنون في مداخل الادب لذلك رأينا عبيد الله عنـــدما يسمع بهذه الاراء البحترية يحسب انه يعرض به او ينشر مجلسا من مجالسه فيجيبه

اجد هذا المقال ام لعبه　　ام صدق ماقيل فيه ام كذبه
اشد مابين الزمان لنا　　ياصاح ماقصده وما اربه

فكانه يتمرن على الحوار فيجيب كلمة كلمة ماالذي بين الزمان وما ارب هذا الزمان في تصرفه بالناس يقول الامير (المتخم)

وما على الدهر منك مسألة　　وانت فيه بالظلم ترتكبه
فمن يكن عذره محالته　　بالقول فالدهر عذره سببه

يعني ان الدهر على حق في احكامه فكانه يقول بفلسفة الديمقراطية اليوم وان ليس للانسان الا ماسعى ثم يشرح هذا المذهب

وما على الرزق لامرئ سبب　　من نفسه بل يصيبه سببه
وانما العقل للفتى سبب　　الى اختيار الصواب ينتخبه

ليس هذا القول ببدعه بل هو رأي القدرية تماما ولا تحتاج الى شرح ثم يمثل على ذلك

وحوز طيب الثمار يكسبه　　ونفي سوء السماع يجتنبه
ونيل حسن الثواب يطلبه　　بالبر في كده ويجتلبه

الى ان يشرح ما كان متعارفا في العقل

والعقل ضربان ان نظرت م　　فموهوب وثان المرء مكتسبه

وهذا القول لايغير شيئا فيما يريد البحتري ثم يعود الامير فيتيه في هذه الترهات متناقضاً نفسه

والرزق قسم الحلال فارض به　　يحسبك ان السعيد محتسبه
وما سواه تظالم لبني الدنـ　　ـيا فكيف القوي تغتصبه
به مكان الحلال محتسب　　عليه والوزر فهو مكتسبه

فيقول اولا ان الرزق يصيبه الانسان بعقله فيختار مايشاء ويطرح مايشاء ثم يعود الان فيقول ان الرزق قسم الحلال فعلى المرء ان يرضى بما قسم له وان طمع في سواه يكون مذنبا تكتب عليه هذه الذنوب .

وكانه علم انه قد ناقض نفسه فيجيب

والعقل اذكى من ان يراد به كسب حرام للمرء يطلبه

فكانه يقول من يقول يدعي ان العقل هو مدبر الكون وهو الذي يفصل بين الحرام والحلال ثم يعود الى قول الفلاسفة .

والظلم في الارض مزمن درجت من الزمان الخالي به حقبه

ثم يرد على صرخة البحتري وموقفه من الناس

واثنان لي منهما أجلهما اعطاء باغي النوال او رجبه

فعرضه سالم اوفره وبعض اسلاب اسرتي سلبه

ثم اخذ يجيب البحتري بيتا بيتا

وليس يبلو الاخوان صاحبهم الا اذا الدهر عضه كلبه

فاللوم لوم المجرب وليس لوم الاخوان

وكان البحتري قد قال

وعدتي للهموم ان طرقت توخيد ذاك المطي او خببه

فيجيبه عبيد الله

وعدتي للهموم ان حزبت صبر وصدر مستوسع رحبه

والفرق بين الاثنين ظاهر فذاك شاعر يستن بسنة العاطفة عند قدماء الشعراء في البوادي للرحيل من الجور وابن طاهر يرى رأي

الحكماء والوزراء الصبر ورحابة الصدر حتى تنفرج الغمة وما كان اكثر ضيقها ورحابتها

ثم يكمل :

ولم اقل للزمان قد رخصت بل كثرت في خطوبه نوبه
كم حامل حامل بهمته ونابه قاعد به لقبه
وانما المرء عقله فاذا احرز عقلا فعنده ادبه
والحسب العقل لا النصاب فقل مصرحا قيمة امرئ حسبه

وهذا هو قطب المعنى الذي يدور عليه وخلاصته ان المرء يجب ان يهتدي بعقله السليم والعقل يرفعه وهؤلاء الحاملون يحتاجون الى عقل نابه وذكاء وقاد اما الذي يحرز العقل يكون اديبا فهذا لا يهضمه البحتري وسترى كيف يرد عليه .

ثم يقول المديح كالعادة حتى يصل الى بيت يحتاج البحتري ان يرد عليه وهو بعد ان يصف الممدوح بالشجاعة والقوة في الحروب

والثكل واليتم محدقان به فليته بث عمره شجبه

يسمع البحتري هذا القول الغريب وهذا الرد الذي لم يكن ينتظره ومن هذا عبيد الله الذي يقف منه موقف الواعظ المؤنب فيجيب

لا الدهر مستنفد ولا عجبه تسومنا الخسف كله نوبه
نال الرضى مادح وممتدح فقل لهذا الامير ماغضبه

هذا رد عنيف هو يحسب ان هذه النظرات في الحياة من لوازم المديح وقد سمعها الممدوح ورضى عنها فما لهذا الامير

مكثرا يبتغي تهضمنا بذي اليمينين كاذبا لقبه
وذو اليمينين غير ناصره من نكت الشعر اثقبت شهبه

وفي الديوان عندما ذكر عبيد الله بن عبد الله (قال بين هلالين واله ابن طاهر) وقد صرح البحتري بانه ابن ذي اليمينين وهو لقب طاهر بن الحسين قاتل الامين وفاتح بغداد

واذا خرج البحتري عن معقوله فلان الموقف غريب من هذا المتطفل على الشعر الذي يعزو الى البحتري هذه السفسطات فيقول ان لقبه كذب وعلى فرض صحة هذا اللقب فهل ينجيه ذو اليمينين من شعره ومن غضب الشاعر ومع ان عبيد الله هذا كان صديقه وقد مدحه وله معه مجالس ادب وانس ولكنه لم يستطع ان يحتمله لانه اخذ شعره وجعل يرد عليه بيتا بيتا ويهزأ بافكاره ويزينها بميزان المنطق ويطبق اقواله على الحياة فكان الحياة المؤاتية لذي الحظ يحسبها من الاصول الاولية ومن البدائه ان العاقل الجاد في حياته هو الناجح ويلوم البحتري وينسبه الى سخف العقل فيقف هذا وينظر بمنجهية الشعر ودلاله فيقول :

ونحن من لا تطال هضبته وان انافت بفاخر لقبه

فاذا فاخر ابن طاهر برتبة الولاية فهضبته وهنا تواضع البحتري فاسماها هضبة ولو جرى مع الجاهلي اقال جبل لا يطال وهذا الحسب الذي يرد ذكره في قول المتباريين يعني حقيقة النسب والشرف .

لو اعرب النجم عن مناقبه لم يتجاوز احسابنا حسبه

وهو معنى قديم لم يستطع البحتري لغضبه ان يجلوه كما جلاه السموءل والفرزدق .

لولا غرامي بالعفو قد لقي　　الظالم شرا وساء منقلبه .

وهنا لم تطاوع اللغة نزق الشاعر فحذف اللام من جواب لولا اما غرامه بالعفو فهو كلام فقط لاننا نعلم انه حمل عليه حملة شعواء ثم يجيبه مؤكدا مكررا .

اذا اراد الزمان معتمدا　　ايكاس حظي سالت ماربه

الى ان يفاضل بين العقل والادب وهو المقصود الاولى من هذه المحاورة ويريد البحتري ان يقول ان الادب هو ثمرة العاطفة بينما العقل مصدر كل تفكير وتروٍ .

وخيرتي عقل صاحبي فمتى　　سقت القوافي فخيرتي ادبه

والعقل من صيغة وتجربة　　شكلان مولوده ومكتسبه

ثم يقف وقفة يستجم وبعد يثب فيبدي رأيه الخالد في الشعر ويكون نموذجا للشعر الغنائي العربي فلنظهر هذا الرأي قبل التعليق

كلفتمونا حدود منطقكم　　في الشعر يلغى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج م بالمنطق ماتوعه وما سبه

والشعر لمح تكفي اشارته　　وليس بالهذر طولت خطبه

هذا رأي صريح، البحتري يرى عمود الشعر ماجاء به القدماء ومثل عليهم بامرئ قيس اشهرهم فالشعر والمنطق لايجتمعان وانه يرد بهذا الكلام على هؤلاء المتحذلقين الذين كانوا في عصره يريدون ان يمزجوا الشعر بالفلسفة فجاء شعرهم غثا باردا او معقدا بعيدا عن كل روح عربية وكأنه القى الينا بدرس بليغ يجب ان يستفيده هؤلاء

الذين في العالم العربي في هذا العصر يشرحون الشعر القديم وينسبون اليه الفلسفة او يقولون هذه آراء الشاعر وينحون باللائمة على الشعراء فيقولون هؤلاء يناقضون انفسهم يبنون اليوم ثم يهدمون غدا اين هؤلاء الشعراء الفلاسفة ؟ اين اصحاب المذاهب الخالدة ؟ — يقول البحتري ان هذا مناف للشعر والشاعرية فالشعر لمح تكفي اشارته والحقيقة هذا هو الشعر العربي خاصة وغيره مما نعرفه من الشعر عامة لايتقيد الشاعر بمذهب خاص بل هي خطرات تمر في ذهنه ولا يدري احد كيف تتولد ومتى تتولد فربة نظرة على غير عمد انتجت معنى مبتكرا يصبح خالدا او كلمة طرقت اذنا واعية جاءت بغتة بزت ماقبلها

هذا هو الشعر الذي يريده البحتري هو لايريد ان يجادل في ارائه هي خطرات شاعر يلقيها وعلى السامعين ان ينتفعوا بها سلبا او ايجابا هو ابن فكر لذيذ في قلب والده فاذا ضم الى اخوته اصبحت بنات الافكار تشبه هذه النغمات اللاذة التي لاجدل في استحسانها ومتى عرضت على ابواب الجدل المنطقي ذهب رونقها ونصل لونها .

فليرجع نقادنا الناهون الى هذه الحقائق وليقيسوا الشعر بهذا الميزان يتذوقوا حسناته وتحل لديهم مشكلة المتناقضات في الشعر العربي وينصفون الشعراء من هذا الاضطرات الفكري .

وكأن البحتري جرى مستبعا وهو لايعلم انه تيار منطقي فليس الشعر لمحات فقط ولا هو افكار نقدات طائرة كما في اصطلاح هذه الايام بل يحتاج الى رونق والى جسد يظهر هذه الروح فيقول :

لو ان ذاك الشريف وازن بين اللفظ واختار لم يقل (شجبـــه) هذه ميزة شعر البحتري وهذا حسه المرهف وذوقه الرفيع اما قوله ذاك الشريف فهو تلطف جدي وليس فيه شيء من السخر فهو شريف وهو امير وقد هدأت ثائرته الان بعد ان فتأ من جأشها فعلى الشاعر سواء شريفا كان ام غير شريف ان يوازن بين اللفظ والمعنى (ولكن كانك خياط يفصل الثياب على مقادير الاجسام) فالمعنى الشريف يجب ان يكون في قالب شريف وهذه هي الموازنة فقوله (شجبـه) وهو يعني البيت السابق عند عبيد الله .

والشـــكل واليتم محدقان به فليتـــه بث عمره شجبـه

لم يكن مثل هذا قد وضع في درس بل كان يحسه الاعرابي الشاعر فاجتماع الشين والجيم اقل مافيه انه غير موازنة ومن المؤكد ان البحتري واهل جيله وفي العراق ايضا كانوا يلفظون الجيم من الشجر على الطريقة الشامية اليوم خلافا للفظ المصري فلو كانت باللفظ المصري لما حصل هذا التنافر بين الحروف كما يقول البيانيون وعدم الموازنة كما يقول البحتري ثم يقرر .

واللفظ حـــلي المعنى وليس م يريك الصفر حسناً يريكه ذهبه

هذا معنى ساذج من لا يعرف ان اللفظ هو حلية المعنى ومهما يكن الجسم متناسقا وقويا فانه يحتاج الى الحلي في زينتـه ولكن كثيرا من الشعراء لم يكونوا يحسنون ان يطبقوا هذه النظرية انظر ابن الرومي معاصر البحتري او انظر ابا تمام امام البحتري .

اما اجمال التشبيه فظاهر فهل للنحاس من الحسن ماللذهب فالمعنى

القوي يحتاج الى لفظ يحليه واختيار هـذه المناسبة من اختصاص عباقرة الشعر .

اوضح البحتري هذا الرأي يوم دخل العراق وعرض طريقته على امام الكتاب واعلمهم محمد بن عبد الملك الزيات .

بعد ان يقرر البحتري هذه الحقائق ويرد على مناوئه ويعلن الخصائص الخالدة للشعر العربي ، ينسى انه وعد بالعفو عن خصمه فيرشقه باهزع كنانته

اجلى لصوص البلاد يطلبهم وبات لص القريض ينتبه
قاتلتنا بالعديد تملكه معتزيا بالعديد تنتخبه
اردد علينا الذي استعرت وقل قولك يعرف الغالب غلبه

هذا تهكم مر وتصريح يصم البحتري بانه خرج عن طريقته السلمية فهو الامير الذي يتعقب اللصوص فيجلوهم ويصبح هو نفسه لص القريض .

ثم يلتفت وهو من البلاغة بمكان قاتلتنا بقوافينا فاذا كنت شاعرا فاترك قوافينا وهات ما عندك نعلم قيمة غلبك .

ثم يختم هذه القصيدة بابيات في مدح ابن بسطام وذكر حادثات لا قيمة شعرية لها وهي ثمانية ابيات مما يدل على ان المقصود الرد لا المدح

تعليق : يتضح من هذه المحاورة ان كل اجزائها تامة يقول البحتري فيرد عليه ابن طاهر فيجيبه البحتري وينتهي الجدل ، وهي طريقة منطقية لم يزل عليها العقلاء الى اليوم اما ما سواها فهو مهاترة فليت بعض كتابنا على صفحات الجرائد خاصة يتلقون مثل هذا الدرس

البليغ فيعلمون ان الكلمة الاخيرة هي التي قال اولا وعلى الرأى العام ان يحكم وعلى التاريخ ان يظهر الحقائق .

اما رأي البحتري ان الدنيا حظ فهي لمحة شعرية قالها في هذا الوقت ، وقال بعدها ما يخالفها كما قال قبلها ايضا ، ولم يصر عليها وكان ابن طاهر اتخذها وسيلة ليتحرش بالشاعر ويظهر ان كلمة البحتري (وكم نوه يوما بخامل لقبه) حملها ابن طاهر على غير محمل الاخلاص فهاجته المساجلة ، فلما قال البحتري ان هذا هو لمحة شعرية اكتفى بذلك ولم يعر هذه الغمزات من الرتبة ومقامها ومن ذي اليمينين وهذا الوعيد واتهامه بانه لص القريض فلم يكن ابن طاهر شاعرا ولم يكن يطمع بان يباري البحتري بذلك كما انه لم يطب له ان يكون كالبحتري شاعرا فهو امير وقائد وهو شأن ابيه وجده ـ شاعر ايضا

اما ان هذه المساجلة جرت بطريقة المديح فهذا مما يؤيد رأينا في ان المديح هو باب لغرر الشاعرية ومنفذ لعبقريتها كما هي القصة في الادب الغربي وان كانت هذه الابواب الشعرية اضيق لاتتسع للتحليل والتقصي .

كل هذا ولم نر ابن بسطام يتدخل في الامر ولم يكن ابن طاهر يطمع او يرضى بجائزة ابن بسطام وهو قرنه في مثل هذه المواقف واغرب مافي الامر اننا لم نجد شاعرا خاض هذه الغمرة او دخل بين الشاعر والامير وان كان مثل هذا الجدل يحدث في المجالس ببغداد وسر من راى والبصرة .

ويلاحظ اخيرا ان الفقهاء لم يتعرضوا لهذه الاراء ولم يدينوا

قائليها فهم لم يتعرضوا للدين صراحاً ولم يذكروا آية واحده في جانب اي راي مع انهم لايعدمون ذلك ولكن عصر الجدل والزندقة قد انتهى وعهد التزمت والضغط على حرية الفكر كان قد زال بزوال حمية الخلفاء والقائمين على امر الدين فلم يكن المعتمد ولا الموفق ممن يهمهم هذا الامر .

في هذه الفترة بزرت بذور الفلسفة وفي هذا العصر اعدت عدتها حتى خرجت بعد عشرات السنين فقط فملات العالم الاسلامي وكانت الدعوات .

والبحتري الحاذق مع كل تزقه في هذه المساجلة ابعد ماشاء عن اصول الحوار واخذ يقرر عمود الشعر — ويضع له القواعد وليست هذه اولى مظاهره فقد التقى مثل هذا الدرس على ابن الرومي عندما كان يهجوه فكان يرسل اليه برقيق الغزل والمال ويقول هذا هو الشعر الذي يجب ان تعالجه ولم يكن يخرج الشعر الراقي عند البحتري عن هذه الحقيقة .

١ — الشعر لمحات لايرجع فيه الى المنطق اي ليس هو من ثمار العقل بل هو نبضات القلب ومثار العاطفة .

٢ — اللفظ حلي المعنى اي ان الجمال رونق الشعر وبغيته وقبلته .

فالخيال الخصب هو ينبوع الشاعر والصياغة اللفظية هي قابلته وجائيته وسابكته في قالب الجمال .

وما برح الشعر منذ كان لايعدو هذين الحدين وما خرج عن ذلك فهو لغو لا يعتد به وليس من الفنون الرفيعة .